السيرة الذهنية في رواية أوراق لعبد الله العروي
قراءة في المتون النقدية المغربية .

الدكتور حميدي بلعباس

جامعة معسكر

يهدف هذا البحث إلى قراءة المتن النقدي المغربي المتعلق بالسيرة الذهنية وهو يحاول جاهدا تشخيص الذات في ثنايا النص رغم تقنع هذا الأخير بأقنعة كثيرة ،وسعت هذه الدراسة إلى تبيين مدى تتبع النقاد المغاربة للمشروع السير ذاتي من خلال الطفرة النوعية التي حققها الأديب عبد الله العروي من خلال رواية أوراق وتعامله مع السيرة الذهنية ، وكيف استطاع الارتقاء بها من مستوى الشهادة إلى مستوى التخييل .

لقد سعى النقد المغربي إلى التميز وأضحت القبلة النقدية العربية –فيما يبدو- مغربية بلا منازع ،أعادت بعث أسماء نقدية جديدة ،وبذلك استطاعت أن تعيد قراءة الكثير من النصوص الإبداعية لتي طالتها يد الإهمال و النسيان سواء كانت نصوصا قديمة مثل رواية ً ثمرة أنسي في التعريف بنفسيً لمختار السوسي 1790م،و روايةً الزاوية للتهامي الوزاني 1942م .

لقد أفضت هذه القراءة الجديدة للسيرة الذاتية إلى توغل الناقد في النصوص الإبداعية متسلحا بإجراءات فرضتها المناهج الحديثة وقعدت لها أهم النظريات السير ذاتية في النقد الغربي . إن أهم ما يلفت الانتباه في الواقع

الثقافي المغربي ،هو التغير الذي شهدته الساحة الأدبية ،مما ينبو عن حساسية أدبية لدى المبدع والمتلقي ،هذا التغير جاء نتيجة التراكم الإبداعي أدبا ونقدا .

حظيت السيرة الذاتية باهتمام كبير من طرف النقاد المغاربة ،بوصفها جنسا أدبيا له حضوره الفاعل ،لم يتم إلا من خلال إعادة النظر في طبيعة الأجناس الأدبية خاصة في ما تعلق بالسيرة الذاتية كونها كانت محتقرة حتى بداية الستينيات من القرن الماضي .وتنوعت أشكال الكتابة عن الذات في المغرب من مذكرات واعترافات ويوميات ومحكي الحياة إلى سير ذاتية متداخلة مع أشكال أخرى ومن هنا تبدو إشكالية النوع والتجنيس تؤرق الناقد .

اختلف في جنسية مؤلف أوراق لعبد الله العروي ،ولاستجلاء كل لبس نسعى في هذه المقاربة إلى استكناه مغاليق هذا النص بوصفه عملا أدبيا يرصد الجانب الفكري للمترجم له . واكبت الرواية العربية المغربية التغيرات في المغرب بداية من معركة الاستقلال،واستطاعت أن ترصد مواطن التجاذبات الفكرية التي شهدتها المغرب ،(كما استطاعت البرجوازية الصغيرة التي عبرت عن وجودها رسميا وعلنا في 1959م.من أن تساهم من منظورها الخاص ،في إثراء الحركة الأدبية ،وفرضت نموذجها الفني ،وهو النموذج الذي لم يكتف برصد الهزائم التي ألحقت بهذه الطبقة ،واستثمارها كخلفية فكرية وإيديولوجية تغني العمل الفني)(**النساج ،س أ ،.1985،280.**) .وطفا على الساحة الثقافية الكثير من التيارات التي (لم تستطع مسايرة مجموع المتغيرات التي رافقت مرحلة الاستقلال،وبداية المتغيرات التي شهدها الوطن في تلك الفترة،وما لحقها من هاجس مواكبة النهضة الأوروبية في شتى مجالاتها

السياسية والاقتصادية،والثقافية،حيث أضحى التوفيق بين الجديد والتراث مشكلة حضارية كبرى ،ما زال الحديث عنها متواصلا ،وما زال البحث عن الحلول المناسبة يكون هاجسا لدى الشريحة الاجتماعية)(**عباس،إ** .2002:60)

يولي الناقد محمد الداهي عناية فائقة برواية "أوراق "لعبد الله العروي، وهي - في نظر الناقد- رواية تتطلب من قرائها مجهودات مضاعفة لملأ البياضات والفرجات التي تتخلل الرواية ،وبقدر ما يتغلغل القارئ في مؤلف "أوراق" ،يكتشف (تداخل مواثيق أخرى مع الميثاق المعلن والمصرح به.وكل هذه المواثيق تبنى انطلاقا من زاوية النظر التي يتعامل القارئ اليقظ مع شخصية "إدريس".فإذا اعتبرها شخصية خيالية ،فإنه سيشرع الباب أمام توطد البعد التخييلي أو الروائي .أما إذا اعتبرها شخصية واقعية من لحم ودم،فإن البعد السير ذهني هو الذي سيتعزز فارضا تتبع ما يتعلق بالمسار الفكري والتعليمي للمترجم له فقط)(**الداهي ،م.2007:58.**) . وإذا اعتبر القارئ فرضا أن شخصية "إدريس" واقعية ،فإننا نقف عند حدود السيرة الذهنية بحيث تتماهى فيها شخصية "إدريس" وشخصية القاص ،ويستحضر الكاتب في هذا الانجاز كل ما عاشه رفقة "إدريس ".الشيء الذي زاد في حرارة الرواية وأسهم أيما إسهام في صنع قيمتها.ويعتبر الناقد محمد الداهي أن ما يفصل بين "إدريس" و"العروي" هو أن إدريس امتهن مهنة الصحافة قبل أن يرحل عن هذه الدنيا ،في حين أن الكاتب أستاذ جامعي قبل أن يحال على التقاعد،وهو في عز عطائه الأدبي والفكري . ويعتقد الناقد أن تنوع المعين الثقافي لمؤلف "أوراق" ،هو بمثابة المحفز على قراءة هذا الانجاز بسبب غناه وشموليته ،إضافة إلى ذلك فهو يكتسي أهمية بالغة في تحريض جيل الشباب على القراءة والمثابرة ،كما هي دعوة صريحة إلى النهل من التيارات الفكرية والاديولوجية التي ظلت لفترة

طويلة تغذي وتستهوي السجال الفكري بين مختلف شرائح المجتمع . كما يعمد الناقد في هذه المقاربة إلى الخوض في تفاصيل شخصية عبد الله العروي ،بحيث يحيلنا إلى جملة من المنارات التي هي مفاتيح مسعفة في فهم النص.

لقد استطاع هذا النص أن ينسج نصا تخييليا ليشذ عما هو مألوف ومتداول (**الداهي ،م..57:2007**.)إن ما كتبه عبد الله العروي من كتابات سير ذاتية تتزيى بالشكل الروائي، تطالعنا مستوطنة فضاءات ذهنية عديدة ،واستطاعت أن تتجاوز أفق القارئ وترتد على البدايات الأولى للكتابة الروائية ونقصد بها تجسيد الخطاب الواقعي (بحسبان أن السياق الذي واكب النشأة والخطوات الأولى كان سياقا مشدودا إلى "الواقعية "ودلالتها الحافية الموحية بالقدرة على التقاط الواقع المغربي المتحول... مثل هذا السياق المشدود إلى الفورة الإيديولوجية،الميال إلى تضخيم دور الكتابة بفعل تأثيرات مشرقية ومغربية محمومة بدعوات الالتزام و الأدب الهادف)[1](**برادة ،م.199:2003**). إنها الكتابات التي ميزت إبداعات مرحلة السبعينات من القرن الماضي وأصبغت آثار المشرق والمغرب بلون أدبي نتحسس فيه مواطن الدعوى إلى الإيديولوجية و الالتزام كما أطرته سيادة الاشتراكية.

- 1- **عبد الله العروي والرواية الجديدة :**

يولي الناقد محمد الشيكر أهمية بالغة لرواية "أوراق" لعبد الله العروي ،ويترسخ في ذهنه انطباع عكس ما يرى طائفة من الكتاب العرب أن عبد الله العروي نافذ وأقوى في تحليلاته الإيديولوجية ونظراته الفلسفية وتناوله التاريخ منه من في إنتاجه السردي .وقد أثار الأديب عبد الله العروي الكثير من القضايا الفكرية والنقدية ، ومن النقود المتميزة التي واجه بها الرواية العربية

،أنها أخفقت في تحقيق الغاية منها لأنها في نظره قد (تمسكت بمسكة الموصوف ،وتعلقت بالنادرة) (**الشيكر** ،م. 35:2004).أي ظلت مسكونة بأدواء كثيرة أعظمها فتكا هو استمرار كتابها في بخسها .لقد انتقد العروي نجيب محفوظ وحاكمه وطابورا روائيا عربيا كبيرا ،واعتبر أفقهم حسير (**الشيكر** ،م ، **35:2004**)، يعيد نفسه وإن ظهر بأوجه متعددة ،إنه أفق يتكرر باستمرار. ويورد العروي رأيه في أدب نجيب محفوظ وقد أربك أفق انتظار القارئ قائلا : (نستطيع أن نفرز في كل ما كتبه نواة لا تتعدى ثلاثين صفحة يرويها المؤلف ويعيدها بلا ملل في سياق رتيب) (**العروي** ،ع .**243:1995**). إنه تقرير يربك فعلا المتلقي ،ويفرض علينا هذا الواقع ،إعادة صياغة أسئلة جديدة ،وما يثير الدهشة فعلا تعليق عبد الله العروي على نمطية نجيب محفوظ في تقديمه صورة المجتمع المصري ويرى أنه (يقدم لنا صورة ثابتة شبه راكدة عن مجتمع نعلم ونحس أنه في غليان) (**العروي** ،ع .**247:1995**)..إنه غليان المرجل الذي أدركته ورصدته الفلسفة وأخفق في تقفي آثاره البارزة الأدب ، والسؤال الذي يطرح نفسح بحدة : هل عجز نجيب محفوظ فعلا في إدراك كنه الصراع في مصر ، أم أن السلطة في مصر أشد وطأة على الفنان في كيدها وخداعها وإخضاعها إذ تمثل فعلا واقعا أشد من الواقع المتخيل في ذهن نجيب محفوظ . أسئلة كثيرة يثيرها عبد الله العروي عن نجيب محفوظ وأدبه، ويرى أنه لم يشذ عن القاعدة التي دأبت الأقلام العربية تنسج على منوالها أي التكرار وهلامية الرؤية.

إن الرواية الناضجة في نظر العروي ،هي التي تحبل بأسئلة المجتمع ،وهي رحلة ذهنية تسعى إلى تغييره وتربيته وجدانيا . (**العروي** ،ع .**244:1995**). لقد استفاد عبد الله العروي من الرواية الجديدة ،ويعتبر محمد الشيكر أن صاحب "أوراق "(لم يفد على الكتابة الروائية إلا من تراكمات الحداثة الأدبية

الغربية ومن وعي حداثي استثنائي) (**الشيكر ،م .243:1995**)..هذا الوعي هو الذي أفاد الرواية وجعلها تضطلع بمشروع اجتماعي حداثي،(ففك الروائي الحديث عن السرد عزوفا تاما،وراح يصف المرئيات كما هي ،أو كما تتبدى للبصر وحده)(**اليوسف سامي ،ي.110:2002**). لقد ادعى كتاب الرواية الجديدة أنهم يتنكرون لفن الرواية الكلاسيكية ،ويسعون لإقامة نمط جديد من الكتابة ،إنه النمط المستحدث ويزعمون أنهم يقتربون من الأشياء لاكتشاف الحقيقة ،فهي تبحث عن سر ما،وهي بذلك تهمل المعنى .

- **2- البحث عن قارئ لأوراق**

أولى الفاعلون التربويون بالمغرب عناية فائقة برواية "أوراق " ،إذ تدرس في أقسام البكالوريا أدبية، وهي تدرس دراسة غير مستوفية. ويحتاج هذا الانجاز إلى قارئ حاذق محفز ومزود بمناهج حديثة يستطيع بواسطتها فك رموز هذا النص. ويلفت محمد الشيكر انتباه الباحث إلى كيفية تلقي النصوص الروائية حيث (يتعين على أن نعقد نفي البدء ،تمايزا منهجيا بين نحوين لحياة النص الروائي ،وضربين من ضروب تلقيه واستقباله:من جهة ،الرواية كأفق لمعرفة روائية .والرواية في مقام ثان كمادة دراسية.أو الرواية كمادة وموضوع لنقد "أكاديمي "،والرواية كمادة أو موضوع لأداء ديداكتيكي ،ولفعل تدريسي .فالأولى ،هي ذلك النمط السردي الذي ينفتح على تعددية دلالية ،يضطلع بمباشرتها قراء مخصوصون (هم النقاد) يملكون عدة مفاهيمية أكادمية.وحظا مشهودا من المعرفة النقدية الروائية،للاقتراب من النص المقروء،ولامتطاء عتباته ،وفك علاماته من غير تقييد لحرياتهم ،أو لمقترباتهم .في حين أن الثانية هي نص محكي يضطلع بقراءته،وفعل إقرائه قراء مدرسيون أو وسطاء تربويون يحدوهم في المحل الأول وازع تعليمي ويحدهم في مجمل قراءتهم فعل تقويمي). (**الشيكر ،م .13:1995**)..

إن هذا الطرح يجعلنا نستشف أن الناقد يفرق ما بين الرواية كمادة دراسية أو درس سردي ،فالحاجة ماسة في مثل هذه الأحوال إلى تحويل هيئة التدريس إلى تكوين أكاديمي تكتسب من خلال مهارات لمعرفة الرواية، والنقد الروائي، والسيميائيات ،والسرديات ،وتاريخ الرواية ،وسوسيولوجيا الرواية. إن عملية التدريس – في نظر الكاتب- يجب تكون مدعومة بأدوات إجرائية، وهي في حقيقة الأمر(سوى عملية تقنين وتحويل لمعرفة عالمة إلى معرفة تعليمية) (**الشيكر ،م .14:1995**) . إن رواية "أوراق" تدعو القارئ إلى استكناهها ،إنها نص حداثي يدعو قارئه إلى التنقيب في فحواه.ومما هو ناصع أن عبد الله العروي يدرك جيدا أن (أسوأ أصناف الروايات هو ذلك الصنف الذي يريد أن يعلم القارئ بعض الأفكار الاجتماعية تعليما مباشرا يشبه التعليم المدرسي . وههنا ينبغي التوكيد الجازم على أن الفكرة لا تصير أدبا إلا إذا استحالت إلى شعور،أو إلى برهة في بنية الوجدان وما ذلك إلا لأن الشعور هو كل شيء في الحياة البشرية)(**اليوسف سامي ،ي.38:2002**).

يبدو أن رواية" أوراق" لم تلق الاحتفاء الذي تستحقه ،وإن كتب لها أن تدرس في برامج الصف الثالث ثانوي. هذا الاقحام لم يخدم رواية "أوراق" كما أقر محمد الشيكر ،ويفترض أن يتغشى هذا النص قارئا حاذقا لا شارحا أو معلقا .ويذهب ناقدنا إلى أبعد من ذلك كونه يعتبر "أوراق " (بما هي طروس على ضرب من التهجي الهيروغليفي ،ومن الكتابة العارية التي تدفع بالبياض شطر الامتلاء،وتقود الدوال إلى مدلولاتها) (**الشيكر ،م .16:1995**) . ويتضح أن "أوراق" عبد الله العروي تحتاج إلى قارئ يفترض واع له القدرة على استجلاء دوائر النص المغلق، وله من التأسيس الفلسفي ما يسمح له بفهم وفك شفرات

هذا النص الذي لم يتعود عليه القارئ. لقد قادت المعاينة محمد الداهي إلى البحث في الإستراتجية التعاقدية التي قام عليها كتاب أوراق ، حيث يرى أن عبد الله العروي يعقد مع المتلقي ميثاقا سير ذهنيا وذلك (بإثبات التعيين الجنسي على الورقة الثانية من المؤلف ،وبالتمييز بين الجانب الوقائعي و الجانب التحليلي في المقدمة التي صدر بها المؤلف. إن الجانب الوقائعي من حياة "إدريس" سبق لعبد الله العروي أن أبرزه في روايات "الغربة" ،و "اليتيم" ،و"الفريق" .وهو يتعلق عموما بما عاشه إدريس من أحداث ووقائع،وما نسجه من علاقات ببلدته (الصديقية)وخارجها ،وما اتخذه من مسافات تجاه الواقع لما عاكس طموحاته وقاوم أفكاره النيرة .أما الجانب التحليلي ،فهو يستبعد الأحدوثة،ويتقصى الجانب غير المعروف من حياة إدريس وهو المتعلق بمساره الفكري).(**الداهي ،م .59:2007**) ،و ما يهم الناقد في هذا المجال ليس جمع الوقائع وتحليلها والتعليق عليها ،وإنما هو الجانب الخفي على كثير من الدارسين ،إنه الجانب الفكري ومعطياته .

إن نجاح رواية "أوراق" يتمثل أساسا في مدى استقطابه لجمهور القراء والنقاد ،وقد توخى صاحبها في هذا الانجاز وصف الجو الثقافي الذي عاشه رفقة أقرانه ومن ضمنهم إدريس الذي يعتبر من رموز جيله . لقد كانت للعروي طريقة خاصة في تدوين سيرته ،لقد عمد إلى الرجوع (إلى ما خلفه إدريس من أوراق متفاوتة في مضامينها وأشكالها وأنواعها) (**الداهي ،م.60:2007**) ،إنها السندات التي يتكئ عليها كاتب السيرة الذاتية في صراعه مع الزمن . لقد حاول من خلالها رصد الجانب الفكري للمترجم له وذلك لمعرفة مراحله التعليمية والفكرية .وعلى هذا النحو حاول العروي استجلاء التصورات الإيديولوجية لإدريس والبحث في ما مدى مواكبة التيارات الفكرية والفلسفية

التي تأثر بها ،ومما لاشك فيه أن (المناخ الزاخر بالمتناقضات كان مدعاة إلى زعزعة أركان شخصية المثقف العربي في القرن العشرين وإذكاء الشعور لديه بأنه فاقد لمعايير أصيلة وثابتة يبني عليها خططه الإصلاحية ونظرياته الفكرية التي يصبو من خلالها إلى بناء مستقبل شعبه وأمته) (**الطريطر ،ج .384:2004**) . لقد تنوعت روافد كتابات عبد الله العروي فهي مزيج من التراث العربي العتيق الذي تشبع به الأديب ،كما أنه استفاد من الفكر الغربي الأمر الذي مكنه من ارتياد عوالم روائية ،استطاع في سعيه هذا إلى التوفيق في تصوير الواقع العربي المتأزم . نستنتج مما سبق أن النقد المغربي قد أولى عناية فائقة بالروايات التي تعتبر من كتابات السيرة الذاتية ،وسعى وفق هذا المنظور إلى إعادة الاعتبار إلى الكثير من الروايات ،هذه القراءة الجديدة غذتها كثرة اطلاع النقاد المغاربة على المناهج النقدية الحديثة ،واستفادتهم من النقد الغربي .

قائمة المصادر والمراجع :

1- ابراهيم عباس ،2002 ،الرواية المغاربية ،الجدلية التاريخية والواقع المعيش ،منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار ،الجزائر .

2- الداهي محمد ،2007 ،الحقيقة الملتبسة ،قراءة في أشكال الكتابة عن الذات،شركة النشر والتوزيع المدارس ،الدار البيضاء ،المغرب .

3- النساج سيد أحمد ،1985،بانوراما الرواية العربية الحديثة ،ط1،مكتبة العربي ،بيروت.

4- برادة محمد ،2003،فضاءات روائية ،ط1،،دار المناهل ،الرباط .

5- الشيكر محمد ،2004،العالم الذهني في أوراق عبد الله العروي ،إفريقيا للشرق ،المغرب .

6- العروي عبد الله ،الايدولوجيا العربية المعاصرة ،1995،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء ،المغرب .

7- اليوسف سامي اليوسف ،مقال في الرواية ،2002،دار كنعان للنشر ،ط1 ،دمشق.

8- الطريطر جليلة ،مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ،2004 ،مؤسسة سعيدان للنشر ،تونس .